الأسرة و التكنولوجيا

أميرة أنور أحمد الأمين*

لاشك أن الأدوار الأسرية للأم والأب والأبناء وعلاقات أعضاء الأسرة ببعضهم، تبدو الآن مفقودة بالكامل أو مشوهة منقوصة، تسودها الخلافات وردود الفعل وعدم الاهتمام. فالأب والأم يقضيان معظم وقتهما خارج المنزل في مشاغل العمل أو اللهو في مواقف وأنشطة أو فعاليات شخصية هدفها الترفيه وتمرير الوقت. أما وقتهما داخل المنزل، فيستهلكه الأب أو/والأم في أعمال وعلاقات خاصة، أو في مشاهدة البرامج التلفزيونية الفضائية، أو الحديث الطويل على الهاتف في مواضيع وكلام غثاء.. ويبقى القليل جداً من الوقت لديهما للإجابة السريعة غير الجادة والعصبية على بعض أسئلة أو استفسارات الأبناء وبلغة هي لغتهم وميول قاسية أو جافة تزيد من قدرتهم وحاجاتهم للحنان أو الحب أو الألفة والقبول التي ينتظرها الواحد فيهم. والأبناء بدورهم يلاحظون هذا الانشغال والاهمال والنكران الأسري، فيلجأون إلى واحد أو أكثر من البدائل التالية:

- الإدمان على الإنترنت والكمبيوتر والألعاب الإلكترونية، مؤدياً بهم ذلك إلى استنزاف وقتهم ونسيان الأسرة ومشاكلها وتقليل فرص التفاعل معها لأدنى درجة ممكنة وتعميق الفجوة النفسية والعملية بالنتيجة التي تفصلهم عن الأم والأب.
- الهروب إلى شلل الأقران وعصاباتهم لتعويض الحرمان النفسي، وغياب الوالدين وفقدان الإحساس الاجتماعي بالأسرة والكيان والحياة الأسرية، ما يوقعهم تحت سيطرة قيادات هذه الشلل وإنزلاقهم بالتالي في أعمال الإنحراف والإجرام والإدمان على الكحول والمخدرات، أو ترويجها.. فتصبح الشلة مع إنحرافها بالنسبة لمثل هؤلاء الأبناء الملاذ الآمن الذي يجدون فيه القبول غير المشروط الذي يحتاجونه والحنان الذي افتقدوه من أسرهم.

الإنعزال جانباً في زاوية من المنزل أو في غرفة النوم الخاصة بالأبناء، والجلوس أو الحركة الصامتة بدون كلام أو صوت، مع معاناة من أمراض أو إضطرابات نفسية خطيرة على صحتهم العقلية ونموهم وتحصيلهم المدرسي، مثل الإكتئاب والضغط النفسي والإحباط والقلق والشعور بالرفض والوحدة أو الغربة..فتزداد آلام الأبناء آلاماً مُضاعفة، إجتماعية ونفسية وصحية وتربوية أخرى..

لكن الآن فقدنا (كان يا ما كان....) إنها المقدمة الإستهلالية التي مازالت ساكنة الأذهان، لحكايات الجدة وحلقات الأحفاد ليالي الشتاء

والصيف، سارحة بخيالهم، مستمتعين بقصصها، معلمة إياهم سلوكيات وقيم بذاك الأسلوب الشيق والممتع. حلقات الجدة هذه لم تكن تقتصر على الصغار فحسب، بل كان يلتحق بها الكبار أيضا، مسترجعين معها ذكريات الصبا والزمن الجميل.

الأصل في العلاقات الأسرية هو الترابط والتلاحم المبنيان على الحب والمودة بين الجميع، إلا أن التحولات التي عرفتها العلاقات الاجتماعية بصفة عامة والعلاقات الأسرية بصفة خاصة، تسبب في انفراط عقد الأسرة، فبات يسكنها الفتور ويهجرها الدفء، وكل عضو من أفرادها يسبح في واد.

إن الغزو الذي شنته التكنولوجيا على الأسر، غير مجريات حياتها وزعزع أركانها، فغيب دور الجدة وركن حكاياتها رفوف النسيان. فبدأ الجميع يتجمهر مشدوها حول التلفزيون وبرامجه، فتصبح الشاشة الصغيرة هي المتكلم الوحيد سارقة الكلام من الجميع حيث ينبغي التواصل والتحاور عوض الغوص في عوالم التكنولوجيا بمختلف أدواتها وإستعمالاتها.

أصبح اقتناء بعض أدوات التكنولوجية من الكماليات أو مظهراً من مظاهر التحضر والحداثة عند البعض، بل بلغ هذا التملك درجة الهوس، إذ أصبح بمعدل جوال لكل فرد، لصيق به لا يفارقه في حله وترحاله، مكالمات ورنات لا تنتهي، رسائل قصيرة، لا يتوقف عن كتابتها، وأرقام يقوم بتركيبها اعتباطياً لنسج علاقات جديدة خارج المحيط العائلي.

فالزوج له قائمة أرقام خاصة به والزوجة نفس الأمر. وكل منهما يحاول التكتم وعدم الكشف عن نوعية العلاقة التي تربط أحدهما بتلك الأرقام..إنها الذخيرة التي يلجأ إليها البعض، عندما يشتد عليه الخناق وتتكاثر مشاكله، للتنفيس عن نفسه والبحث عن التجديد في علاقاته أو إسماع صوته كلما أحس بالغربة أو عدم الرضا والأمان وسط الأهل.

أخذت ظاهرة التباهي والتفاخر فيما بين الجميع بإمتلاك آخر الإبتكارات في عالم الهاتف النقال، وتبادل مقاطع الفيديو والصور الرقمية و"الكليبات" الموسيقية، تطبع علاقات الأفراد فيما بينهم من جهة وعلاقاتهم الأسرية من جهة ثانية، فأغلقت منافذ التواصل الداخلية وفتحت تلك الخارجية على مصراعيها.

إن تقنية التصوير بواسطة جوالات الكاميرا أو الكاميرات الرقمية، جعلت التشهير والإساءة من نصيب من وضعته ظروفه السيئة في طريق من إنعدمت فيه الإنسانية والأخلاق.. فكم من لقاءات حميمية بين اثنين، صورت من أجل الذكرى أو بهدف التهديد والإبتزاز وتم تحميلها على الحاسوب لتنشر في المواقع وتمرر بين الجميع إنتقاماً أو استهتاراً إلى أن يفتضح الأمر فتصير المسألة مخلة بالآداب العامة ومعرضة أطرافها للمساءلة القانونية...

تباعدت المسافة بين الأبناء والآباء، فعوض الإحتضان مع المراقبة، ترك الأبناء عرضة لـ" البلاي ستايشن" يسرقهم.. والحاسوب بألعابه الإلكترونية الساحرة والمدهشة، والخطيرة على سلوكياتهم وتكوينهم النفسي في بعض الحالات، يبتلعهم، ناسين واجباتهم المدرسية ومتجاهلين علاقاتهم بآبائهم، مفضلين الجلوس لساعات طوال أمام الشاشة، حاضرين بأجسادهم، غائبين بعقولهم، لا يجمعهم مع الأهل سوى بعض السويعات للأكل أو الكلام المختصر غير المفيد طبعاً. وعلى صعيد العلاقات بين الأفراد، يلقي نجد التأثير السلبي للتكنولوجيا في تراجع منسوب الإتصال والتواصل المباشر، التفاعلي والحميمي. الكل يعتمد الحاسوب كوسيط وكأداة للمراسلة واستسقاء الأخبار عن الأهل والأحباب، عكس اللقاء الحي والعفوي.

ما نحياه اليوم من تطور تكنولوجي كبير، وثورة معلوماتية خارقة، اجتازت الحدود والأماكن، جعلت من كوكبنا عالماً صغيراً، يستطيع المرء عبره الوصول إلى أي مكان بمجرد ضغطة زر، ومما لاشك فيه أن تأثير الثورة الإتصالية على الأسرة. التي تمثل نواة المجتمع. كبير وله جوانبه الإيجابية والسلبية، فقدت كان لها الأثر الأعظم على ركائز ودعائم المجتمع وبنية

الأسـرة وقيمها الحياتية، كما ظهرت لهذه الثورة نقطة شديدة السلبية، وهي ما يمكن تسـميته " تِقنية الجِنـس"، فهناك الآلاف من المواقع الإباحية على الانترنت، كما أن هناك العشـرات من المحطـات الفضائية المتخصصة في بث الأفلام الجنسية والماجنة، فيما ضَعُفت الروابط الأسرية والأواصر المجتمعية بين الناس.

إن ثورة الإتصالات وتقنياتها الجبارة، فتحت أبواب الحياة المؤصدة، وجعلت من العالم وطناً إلكترونياً صغيراً مفتوحاً أمام الجَميع، مهما تباينت الأعمار بـين الأجيـال أو الأجناس، فقد إختلـط الحابل بالنابـل، وتداخلت الثقافات والأمزجة، وضاعت المبادئ الحسنة، وظهرت الآفات والمساوئ بهذا العالم، كما تَوغّلـت التكنولوجيا بقـوة داخل البيوت والغُرف الخَاصة، حتى إشـتعلت نار الثورة التكنولوجية في الأسرة إشتعال النار في الهشيم، وخرجت هذه الثورة عـن حدودهـا في غـرف الحوار عبـر الإنترنت والإتصال المباشـر بـين الأفراد والجماعات، الأمر الذي أدى إلى إنتشار الفاحشة والزنا والفجور والسفور بين أبناء المجتمع، كما سـاهمت التكنولوجيا الحديثة في تدهور القيم، وإنفلات الأخـلاق المجتمعية، وعملت على إنهدام الأسـر وإنهيـار قوامها وتفكّك بيوت النـاس، وهنـاك آلاف القصص التي دمرت الأسـر نتيجة الإسـتغلال السـيئ للتكنولوجيا الحديثة وتقنياتها.

ولعبـت التكنولوجيـا دوراً كبيراً، في نشـر السـلوكيات والعـادات والتقاليد الإجتماعية الهابطة بين الأجيال في المجتمع العربي، فقد أثبتت الدراسـات الحديثـة، الـدور الخطير والسـلبي الـذي يلعبـه الكمبيوتر في عـزل الأفراد إجتماعيـاً وتفكيك العلاقات بين أفراد المجتمع، فالأفراد يقضون وقتاً طويلاً في التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت ما يؤدي إلى العزلة عن الآخرين خلال فتـرة الإسـتخدام، ما سـيؤدي بـدوره إلى نشـر نوع مـن العزلـة الإجتماعية وبالتالي إيجاد نوع من التفكك المجتمعي.

وأشـارت دراسـة أجراهـا المركـز القومـي للبحـوث الإجتماعيـة والجنائية فـي مصـر إلى أن(٣٧،٥٪)من الأسـر تعاني من مشـكلات أسـرية عـدة، أهمها إنحراف الأبناء، والعُنف الأسـري بجميع أشـكاله، وغياب القدوة، والخلافات الزوجيـة التـي تنتهـي فـي كثيـر مـن الأحيـان إلـى الإنفصـال وغيرهـا من المشكلات المجتمعية، فيما يُشير الأخصائيون إلى الإنعكاسات السلبية للثورة الإتصالية، على أفراد الأسرة حيث عملت على زيادة التفكك الأسري، وضعف الروابط المجتمعية وتراجع العادات والتقاليد الأصيلة، وإنتشار ثقافة المُجون والعُـري الفاضح بين الفتيات داخل مجتمعاتنـا العربية، وهذا ما يعكس في حقيقة الواقع الإجتماعي المتدهور في عالمنا العربي، والذي إزداد مع الإنفتاح الجديد على العالم عبر الفضائيات والإنترنت ووسائل الإعلام .

وأظهرت الدراسات والأبحاث العلمية التأثير السلبي الكبير الذي أحدثته وسـائل الاتصـال علـى السـلوك العـام ولاسـيما العلاقـات الحميمـة بـين أفـراد المجتمـع، وحدوث نوع مـن الجفاف وتبلد المشـاعر وزيادة المشـكلات وتفـكك العلاقة الزوجيـة، نتيجة للثقافـات والأفكار التي نقلتهـا لنـا الفضائيـات والتكنولوجيـا المعاصرة..

علينـا العمـل الجاد والـدءوب من أجل إنقـاذ أجيالنـا مـن الضيـاع والتيـه فـي صحـراء التكنولوجيـا المدمـرة للأخـلاق والعـادات والتقاليـد، والوقـوف فـي وجـه التحديـات والمخاطـر الداهمـة، وتشـكيل درع واق لحماية الشباب وتوعيتهم والعمل على نشر الثقافة السليمة بينهم ..

مـا تواجهه الأسـرة العربيـة اليوم، من مخاطر يسـتدعي التصدي لهذه المشاريع التدميريـة ومقاومتهـا بشـتى الطـرق والوسـائل، وحفـظ الأسـرة العربيـة مـن الضياع في الرذائل والمفاسد، وحماية البنى والروابط الأسـرية من الإنهيار والسقوط فـي الهاوية، وسـط ما نحيـاه من تطورات تكنولوجيـة متسـارعة، ولا ننكـر الـدور الكبير والفعـال لهـذه التكنولوجيا لكننا بحاجة ماسـة إلى ترشـيد اسـتخدامهذه التكنولوجيا الحديثة من أجل بناء أجيال قادرة على مواجهـة التحديات والخطوب، وحمـل راية الإصـلاح والتغيير في أسـرنا ومجتمعاتنا.

* الخرطوم/ جامعة القرآن الكريم